القيم الدينية في مشروع النهضة

عند جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧م)

أ. د. أبواليزيد أبو زيد العجمي

أستاذ الفلسفة الإسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

وكلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية جامعة قطر

تمهيد

بين يدي بحثنا هذا (القيم الدينية في مشروع جمال الدين الأفغاني ١٨٣٨ - ١٨٩٧) نرى أن نقدم بمقدمات ثلاث:

الأولى : أن جمال الدين - من خلال كتابات المؤرخين الثقات- مصلح ديني انطلق من فهم للواقع وتشخيص لأمراضه ، وتصور لعلاجه تحقيقاً لرسالة المسلم في الحياة ، سالكاً في سبيل ذلك سبلاً بعضها سياسي مثل تكوين الحزب الوطني بمصر، وبعضها فكري مثل ما أحدثه في تلاميذه ، وبعضها إعلامي كما حدث في إسهاماته الصحفية وغير هذا من الوسائل.

ويكاد يجمع من كتبوا عن جمال الدين أن قدراته الخاصة من فطنة وذكاء واستيعاب ، وأن معارفه المتعددة ، وتنقلاته بين الشرق والغرب، في بلاد الإسلام وبلاد غيره هذه كلها مكنته من أن يحدث ما أحدث في حياة الأمة الإسلامية علمائها وعامتها[١].

كذلك يثبت المؤرخون لجمال الدين الأفغاني أن تعرضه لاتهامات من قبل بعض المغرضين دليل على تميز الرجل وتعدد مناحي شخصيته، وأن ما اتهم به من هنا أو هناك ادعاءات لا تصمد للمناقشة العقلية، فضلاً عن الوثائق التاريخية ، فقد اتهم الرجل في موطنه وقيل إنه إيراني ، ونفى هو هذا الزعم حين قرر أن أول أرض لمسها جسده كانت بلاد الأفغان، وأن هذا الاتهام له أغراضه التي لا تخفى [٢] ، واتهم الرجل في عقيدته حين قال الخديو مبرراً

---

(١) خير الدين الزركلي ، الأعلام (٦/١٦٩) دار العلم للملايين ، محمد عمارة/ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٢/٣٣٦) طبعة القاهرة ١٩٩٣م ، عبدالرحمن الرافعي: جمال الدين الأفغاني(أعلام العرب) ص٥.

(٢) معجم أعلام الفكر الإنساني/ ١/٦٠٧ بحث كتبه: محمود قاسم (المعجم نشر الهيئة المصرية للكتاب، الرافعي : جمال الدين/ ٥)

طرده من مصر بأمر الانجليز بأنه يجمع حوله جماعة من المشاغبين الذين يعملون على إفساد الدين [1] ، وكذلك كان الأمر حين اتهمه شيخ الآستانة بأنه خاض في مكانة النبوة حين تحدث عنها وعن الحكمة في محاضرة عامة[2] ، كما اتهم الرجل بأنه ماسوني لصلته بجمعية الماسون[3] ، لكن الله قيض من فند كل هذه المزاعم والافتراءات [4] ، لتسلم سيرة الرجل عند المحققين ، وليبقى بصفته المميزة مصلحاً إسلامياً وليس قومياً لأنه متحمس للغة العربية وداع إليها لفهم مصادر الإسلام ، ولأنه يتبنى هموم الأمة ، وليس ظروف شعبه أو بني جنسه فقط.

الثانية : ماذا نعني بالقيم في مشروع جمال الدين الأفغاني

نعني بها ما ارتكز عليه جمال الدين في محاولته إيقاظ الأمة المسلمة لتحقيق رسالتها، وكان ذا صلة بالدين الذي استوعب كل الديانات السابقة وأضاف إليها مقتضى العالمية ، والخاتمية، والاستمرار ، أعني الإسلام.

وهنا يتسع معنى القيم ليشمل العقائد والأخلاق، كما يشمل قراءة تاريخ الأمم السابقة باعتبار أن القراءة للاعتبار والإفادة قيمة إسلامية.

ولا نفرق في القيمة الدينية بين أن تكون مستهدفة الفرد مثل قيمة تحريره عقدياً، وفكرياً، ونفسياً ،وبين أن تكون مستهدفة الجماعة أو الأمة ، كذلك لا نفرق بين أن تكون قيمة تخص العامة أكثر ، أو تتوجه إلى العلماء أكثر مثل قيمة الاجتهاد، والنصح للأمة لتنويرها وتحريرها، وذلك لأن هذه القيم جميعها تنبثق من الدين، وتستهدف تغيير الإنسان من حيث هو كائن مسئول عن عمارة هذه الحياة، بعزة وكرامة تجعله كما أرادهه الله خليفة، سخر له الكون ولم

---

(١) محمد عمارة ، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٢/٣٣٦).

(٢) مقدمة الرد على الدهريين للإمام محمد عبده ، ص١٢.

(٣) فهد الرومي ، المدرسة العقلية في التفسير ، ٧٥ السعودية.

(٤) محسن عبدالمجيد ، جمال الدين المصلح المفترى عليه ، ص٩٥.

يتعبده به.

الثالثة : مفهوم الدين عند جمال الدين الأفغاني:

قد يقرأ جمال الدين من خلال بعض نصوصه دون بعضها الآخر ، فيفهم القارئ أنه يعني بالدين كل معتقد يحقق للأمة ثلاث عقائد هي:

١ - أن الإنسان ملك أرضي وأنه أشرف المخلرقات.

٢ - يقين كل ذي دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف لها فعلى ضلال وباطل.

٣ - يقينه بأن الإنسان إنما ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي.

وكل معتقد يحقق لها خصالاً ثلاثة هي: الحياء، والأمانة ، والصدق[1]

ويتأكد لقارئ هذه النصوص دون غيرها فهمه السابق حين يضم إلى هذا ما ذكره جمال الدين من أمثلة على أن الشعوب التي فرطت في هذه العقائد قد انحلت إذ يضرب مثالاً باليونان، والفرس ، ثم يذكر حال المسلمين.

ففهم من هذا أن الرجل لا يقصد ديناً معيناً، ولا ديناً كتابياً دون غيره، وهذا الفهم صحيح في حدود هذه النصوص ، وفي حدود أن للدين معنى لغوياً عاماً هو الاعتقاد كما استخدمه القرآن الكريم ﴿لكم دينكم ولي دين﴾(الكافرون/ ٦).

ولكن قراءة جمال الدين من خلال كل نصوصه ومواقفه تفضي إلى أنه كان يقصد بالدين الإسلام ، وليس أي دين، وإن ذكره لأقوام وثنيين أو مجوس فإنه يعني: أن ما حفز الدين الإسلامي إليه من العقائد الثلاث

---

(١) الرد على الدهريين / ٥٤ ترجمة الإمام محمد عبده ، الرافعي/ جمال الدين / ١٤٨ ، ١٤٩

والخصال الثلاث طريقاً لخروج الأمة من كبوتها، هذا دليل على أنه دين الفطرة، وأن أي فطرة إنسانية تمسكت بهذه المنقذات كان لها الانتصار والاستقلال.

أعني أن جمال الدين وإن استخدم لفظ الدين بمعناه اللغوي فإنه يدرك أن الإسلام هو دين الله إلى البشرية منذ أن خلقها إلى أن تنتهي الحياة، وأن هدايات الفطرة، وتعاليم الأديان السماوية قد احتواها الإسلام فأقر مقتضياتها وأضاف إليها ما تستلزمه طبيعة ظروفه ورسالته.

وعندنا ما يؤكد هذا الفهم نذكر منه:

١ - بيانه لميزات الإسلام باعتباره الدين الخاتم حيث ذكر أن الإسلام:

أ - يصقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام وهو يعني أن التوحيد انتماء يحفظ على الإنسان والعقل كيانه عكس تعدد الانتماءات التي تمزق ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً﴾.

ب - الإسلام يفتح الباب أمام شرف النفس وسموها دون واسطة.

ج - ينفرد بأنه لا يقبل من المعتقد اعتقاد من غير دليل وفهم.

د - أنه يحث على تعليم كل الأمة وتنويرها ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾.

٢ - تصدى جمال الدين الأفغاني للمستشرق الفرنسي رينان حين قدح في العلم الإسلامي، والعقلية العربية، وكان رد السيد جمال الدين من واقع التاريخ ومتشحاً بوشاح العقل والمنطق مما جعل رينان يكبر جمال

الدين .[1]

٣ - تحمس الرجل للغة العربية لصلتها الوثيقة بفهم الإسلام يؤكد إلى جانب ما سبق -أنه يعني بالدين الإسلام وإن كان لم يغفل مبادئ الفطرة التي تمسكت بها أمم ، ولا تعاليم الأديان السابقة باعتبار أن المصدر واحد والهدف واحد.

(١) الرافعي/ جمال الدين / ١٣٢

المبحث الأول

الواقع المثير (للعالم الإسلامي في القرن ١٩) وآثاره

تمثل هذا الواقع في الصلة بين الغرب والشرق كما تمثل في طبيعة العلاقة بين الحكام والمحكومين في بلاد المسلمين، كما تمثل في علاقة المسلمين بأصولهم.

أما عن الصلة بين الشرق والغرب ، فمن المعلوم أنها مرت بأطوار عديدة وبمراحل اختلفت طبيعة كل مرحلة حسب قوة الفكرة الإسلامية، والوجود الإسلامي .

فمنذ الفتح الإسلامي لبلاد كانت تدين بالنصرانية والصراع قائم ، ثم كانت الحروب الصليبية على الشرق، التي استغرقت قرنين من الزمان (١٠٩٦-١٢٩١هـ) وكانت نتيجتها إخفاقاً عسكرياً في مهمة الغرب ، وإن أفاد الغرب تعرفاً إلى المجتمع المسلم وكشف عن بعض أسرار القوة فيه وجماعها في قيمه الإسلامية.

ثم كان فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح (٨٥٧هـ ١٤٥٣م) ضربة مؤججة للصراع، مما جعل التفكير في وسيلة فكرية تعاضد العدوان العسكري أمراً ضرورياً [١] .

أسفر التفكير هذا عن وسيلة فكرية كانت بدايتها الحركة الاستشراقية التي أمدت الاستعمار العسكري بالمعلومات والرؤى اللازمة للتعامل مع المسلمين ، كما أمدت الكنيسة بعلم وخبرة في عمليات التنصير.

---

(١) محمود شاكر/ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا/ ١٧ دار الهلال / أكتوبر ١٩٨٩م؛ زينب عبدالعزيز/ أبجدية الحوار بين الحضارات/ ٢بحث قدم للمؤتمر الفلسفي يونية ١٩٩٣م.

وكان لتعاون هذه الثلاثة (الاستعمار والاستشراق والتنصير، أثره في حياة الأمة المسلمة[1] .

وتصور هذه العلاقة هكذا : الاستعمار الوجه العسكري للاستشراق، والاستشراق الوجه الفكري للاستعمار، والتنصير الوجه الديني لكليهما.

وجدير بالذكر أن نهضة الغرب العلمية بدأت من رفضها للكنيسة ، الأمر الذي جعل المذاهب العلمنية والفكرية تأخذ شكلها اللاديني من دعوة مفرطة إلى الحسية، إلى الوجودية التي تكفر بالإله وتقدس الإنسان، إلى غير ذلك من المذاهب التي سماها الأفغاني بالدهرية (المذهب الطبيعي - التطوري وغيرهما).

استمرت حركة الغرب العسكرية والفكرية تتصاعد حتى كانت في ذروتها في منتصف القرن التاسع عشر [2].

وحسبك أن تعلم أن الجزائر احتلت ١٨٣٠م من فرنسا وكانت ترنو ببصرها إلى البلاد المجاورة وفي الوقت ذاته كانت بريطانيا تحاول بسط نفوذها على بعض البلاد العربية فاحتلت عدن ١٨٣٩م. وفعلت ما فعلت في الهند حتى أخمدت صوت الحرية فيها بالحديد والنار سنة ١٨٥٩م.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان من أمر مصر منذ فشلت حملة فريزر ١٨٠٧م وتعرضها لتنافس فرنسي انجليزي عليها، وكان (١٨٥٤م) أن حصلت فرنسا على أمر امتياز حفر قناة السويس فكان استعماراً اقتصادياً، ثم توالت الأحداث حتى انتهت باحتلال مصر من الانجليز عام ١٨٨٢م.

هكذا ملك الغرب القوة التي يمكن بها أن يفرض فكره على العالم الذي ضعفت صلته بمصادره، فكان افتتانه بالوافد من الغرب مهما كانت طبيعته

---

(١) محمود زقزوق/ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري/٦٨ كتاب الأمة.

(٢) محمد البهي / الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار / ٢٣٣، أبواليزيد العجمي/ نظرات في المعرفة الإنسانية/ ٥٧.

وكانت الفرصة سانحة لأن تغزى عقول المسلمين كما غزيت واحتلت بلادهم مما كان له الأثر على الشخصية المسلمة شعوراً بالإحباط ، وعجزاً عن اتخاذ الموقف المناسب.

أما عن طبيعة العلاقة بين الحكام والمحكومين في بلاد المسلمين فيصورها الرافعي المؤرخ بقوله: «وكانت الداخلية لبلاد الشرق بالغة منتهى السوء، فملوكها وأمراؤها يحكمونها حكماً استبدادياً، ولا يعترفون لشعوبهم بالحقوق السياسية والمدنية، ولا يريدون أن يتخلوا عن سلطانهم المطلق القائم على الأهواء والشهوات. والنظم الداخلية للحكم قد استشرى فيها الفساد، والجهالة متفشية بين المواطنين ، والأمية غالبة عليهم، والعقائد الدينية قد شابتها الأباطيل والخرافات، والجمود مستحوذ على العلماء والخواص، والأفكار مغلقة لا تنفذ إليها دعوة الحق أو التحرر من قيود التقاليد والأوهام.[1]

أما عن علاقة المسلمين بمصادر دينهم فأثرها ما أشار إليه الرافعي في سطوره الأخيرة، ومانعاه جمال الدين على الأمة من غلق باب الاجتهاد، وما وضحه في كتاباته عن أمراض الأمة وكيفية علاجها مما يفيد أن العلاقة بين المسلمين ومصادر دينهم شابتها هزات واضطرابات كثيرة.

ولقد كان لهذا الواقع أثره السيء على الشخصية المسلمة، مما أصابها بأمراض عديدة نذكر منها:

١ - الإحساس بالإحباط والشعور بالدونية تجاه قوة الغرب وبريق حضارته الفكرية، وكان هذا سبباً أو نتيجة لطغيان الموجة الاستعمارية سياسياً ، والمادية فكرياً.

٢ - كذلك فقدت الشخصية المسلمة إحساسها بمسئوليتها عن عمارة الأرض وإثراء الحياة، وكان هذا نتيجة للإحباط الذي أصابها، ولجهلها بما في إسلامها - نتيجة التشويه المستمر والإبعاد المتعمد- من وسائل الخروج من

(١) الرافعي / جمال الدين / ١٢،

الأزمة، والدور الفاعل للإنسان أهم هذه الوسائل وبخاصة في باب تقديم الإسلام يبحث عن مخرج من أزمة حضارته المادية.

٣ - كذلك أصيبت الشخصية المسلمة بغيابها عن ساحة الإسهام الحضاري ، وعانت من التخلف الاقتصادي والاجتماعي، فضلاً عن العلمي، وما ذلك إلا نتيجة للظروف السابقة وعلى رأسها الجهل بدينها ، حيث غاب عنها كثير من أولويات مبادئه، ومفاهيمه ، وقيمه.

٤ - كذلك فقد العالم الإسلامي قوته حينما تفكك وصار دولاً قُرِّب فيها غير الوطنيين ، وأبعد عن ولاية الأمور الوطنيون، واخترعت أساليب الطوائف المتحاربة في غير ميدان حقيقي، لكنها تستنفد قوتها ، ولا يربح من ذلك إلا المستعمرون.

هذه الظروف أثارت همة علماء الإسلام ومفكريه الحقيقيين، فراحوا يفكرون في وسائل لإخراج هذه الأمة من مأزقها، ومحاولة علاجها مما أصابها من أمراض التبعية، والسلبية، وروح الجمود، ونحوها.

ومن الحق أن نقرر أن هذه الظروف وإن أثارت الهمة لدى علماء الإسلام فإن جمال الدين قد أثارته بشكل أكثر من معاصريه ، الأمر الذي جعله يهب حياته كلها لهذا المشروع الذي يتمثل في إقامة دولة إسلامية ناهضة تنهض على أثرها دول ودول. ليعود للإسلام إسهام المسلمين في حضارة العالم وتنويره[1].

❊❊❊

(١) الرد على الدهريين - مقدمة محمد عبده/ ١٣/ الرافعي/ جمال الدين/ ص١٢

المبحث الثاني

مؤثرات في تغلغل القيم الدينية في مشروع جمال الدين

إذا كان الواقع الذي أشرنا إليه قد أثار همته وعزمه فإن هناك مؤثرات أخرى أسهمت في بروز القيم الدينية ملمحاً أصيلاً في مشروع الأفغاني نذكر من هذه المؤثرات:

أولاً : الاعتزاز بنسبه:

حيث ينتسب إلى عالم عظيم من علماء الحديث هو الترمذي ويمتد نسبه إلى آل البيت ، ولم يكن هذا النسب مجرد انتساب إلى عظمة لا تتحقق في أسرته، بل كانت أسرته تشعر بهذه الميزة وتوفيها حقها فتتلقى من الناس تقديراً يناسب الأصل والسلوك ، يقول عنه الإمام محمد عبده: «هذا هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر، من بيت عظيم في بلاد الأفغان ينتمي نسبه إلى السيد علي الترمذي المحدث المشهور، ويرتقي إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وآل البيت عشيرة وافرة العدد في خطة «كتر» من أعمال كابل، . . ولهذه العشيرة منزلة علية في قلوب الأفغانيين ، يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف، وكانت لها سيادة على جزء من الأرض تستقل بالحكم فيه»[1]

فكان للنسب الشريف والمكانة الرفيعة أثره في توجه جمال الدين التوجه الديني وهو يبحث عن مخرج للأمة من واقعها الذي أثاره.

---

(١) محمد البهي / الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار / ٢٣٣، أبواليزيد العجمي/ نظرات في المعرفة الإنسانية/ ٥٧.

ثانياً : استجابته لمقتضيات ما تعلم من علوم الشريعة:

من تفسير وحديث وعربية وفقه وأصول وكلام وتصوف ، إلى جانب العلوم العقلية والرياضية التي تعلمها باعتبارها ضرورة لازمة لفهم العصر وعلومه ، وفهم توجهات الأعداء من خلالها لوصم المسلمين بالتخلف ، كذلك كان على علم بالتاريخ والسير اعتباراً ونقداً.

وإذا كان النسب الشريف والتربية الكريمة توجه صاحبها نحو قيم فاضلة فإن الثقافة التي تكون عقل الإنسان تؤثر في تحديده هدفه من الحياة كما تؤثر في اختياره وسائله لتحقيق هذا الهدف فثقافة الأفغاني الإسلامية قد أثرت في تغلغل القيم الدينية في مشروعه لنهضة الأمة[1].

ثالثاً : توافقه مع عقيدته وأخلاقه:

الإنسان كل لا يتجزأ وإلا كان مريضاً بانفصام لا يتحقق معه أن يكون صاحبه سوياً فضلاً عن أن يكون مصلحاً دينياً ، وقد عرف عنه (جمال الدين) عقيدة حقه ، وسلوكاً رشيداً فمنطقي أن يكون للقيم الدينية حضور واضح في مشروعه ، يقول عنه تلميذه الإمام محمد عبده: «أما مذهب الرجل فحنيفي حنفي، وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلداً ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم ، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه،وعرف بذلك بين معاشريه في مصر أيام إقامته بها ، ولا يأتي من الأعمال إلا ما يحل في مذهب إمامه فهو أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه.

أما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله[2]

---

(١) الرد على الدهين / ص ١٣

(٢) السابق / ١٥

«وأما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب. .

وهو كريم يبذل ما بيده، قوي الاعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر ، عظيم الأمانة، سهل لمن لا ينه، صعب على من خاشنه[1] .

فإذا أضفنا إلى هذا ما كتبه عنه شكيب أرسلان من عزة نفسه وتمسكه بالدين في كل أحواله، وما كتبه عنه كثيرون مما يؤكد تكامل شخصيته الإسلامية، عقيدة صحيحة، وعبادة راشدة، وسلوك ملتزم[2] أقول إذا أدركنا هذا كله كان لنا أن نقول: ما كان لجمال الدين إلا أن يكون كما بدا في مشروعه مصلحاً دينياً يستلهم الإسلام في هدفه ووسائله.

رابعاً : فهمه الشامل للإسلام:

كان جمال الدين واسع الفهم وعميق الإدراك لشمولية الإسلام، فهو دين ودولة،وهو عقائد وعبادات ومعلومات، وهو دين يشرع للإنسان باعتباره مسئولاً قبل أن يكون مكرَّماً، ويشرع له كيف يتعامل مع الطبيعة، فهي مجال تأمله وطريق معرفته، لكنها ليست آمرة له ولا متحكمة في سلوكه، ويفهم الأفغاني الإسلام من خلال تحريكه لهمة الفرد وجهد الجماعة، وتوزيع المسئولية بين الحاكم والمحكوم، كل هذا من خلال نظام للفهم وإعمال العقل، وتزكية الروح لتحصل الشرف والفضيلة.

وقد تجلى فهمه الشامل للإسلام في كتابته عن ميزات الإسلام عن غيره من الأديان، وفي دفاعه عن مكانة العلم والعقل فيه، وفي دعوته العلماء أن يضطلعوا بمهام قيادة الأمة وتعليمهم العلم النافع بكل مجالاته وأنشطته، كما

---

(١) السابق / ٣٧

(٢) شكيب أرسلان/ حاضر العالم الإسلامي/ ٢/ ١١٥

يحكي هذا الفهم في بيانه أن أمراض الأمة تتجمع أسبابها في سبب واحد هو عدم الفهم الحقيقي والدقيق للإسلام أو عدم التطبيق الواعي لمبادئ الإسلام في الحياة[1].

وإذا كان هذا هو فهم جمال الدين لفاعلية الإسلام في الحياة فما كان له أن يختار طريقاً للنهضة من غير قيم الإسلام ومحركات طاقات الإنسان فيه.

خامساً: فهمه العميق والديني لحقيقة الاستعمار بنوعيه العسكري والفكري، حيث يصف الاستعمار بأنه من أسماء الأضداد، ويدرك أثر هذا الاستعمار في تخريب حياة الشعوب من الناحية المادية في اقتصادها، ومن الناحية النفسية في قهرها، ومن الناحية الاجتماعية في تفريقه صفوفها، ومن الناحية العقدية في هدم أديانها ومقدساتها، حيث تضطلع مذاهبه المادية تحت ستار العلم بمهمة مسخ قيمة الإنسان ، وذلك بجعله حيواناً لا يتميز عن غيره من الحيوانات ، وجعله عبداً للطبيعة،وكما أن مذاهبهم هذه تحارب فطرة الإنسان في إيمانه بالألوهية ، ومنطقية أن يكون هناك حساب في حياة أخرى. فوعيه بهذه الحقائق وفهمه أن الشعوب الإسلامية إنما أضيرت في عقيدتها وحركتها بسبب هذه المذاهب الطبيعية والشيوعية وغيرها، فهمه هذا جعله يحبذ محاربة هذه الأمراض بالعلاج الحاسم فيها وهو تنشيط فاعلية الإسلام في حياة الأمم والشعوب.[2]

تعقيب:

هذه المؤثرات التي جعلته يغلغل القيم الدينية ويركز عليها في مشروعه هي كذلك التي جعلته يفهم التنوير على أنه البناء والعلم الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهذا لا يكون إلا من خلال عقيدة الأمة وثقافتها اللتين يستهدفان ويتناسبان مع مصالحها الحالية ، ومستقبلها المرتقب ، ولأنه

(١) الرد على الدهريين / ١١١

(٢) الرافعي / جمال الدين / ١٦٦

يدرك أن مرتكزات هذا التنوير تأخذ شكلها الحقيقي في الإسلام حيث العدل والشورى، وحيث العلم والعقل وحيث تنمية المال وعمارة الحياة وفق أوامر الله في هذا وذاك.

ولعل فهمه هو الذي جعله يندد بدعوى أصحاب المذاهب الطبيعية أنهم تنويريون [1]، ويرد ذلك ببيان أنهم مصلحيون وأنهم يهدمون قصر الأمة المسدس ذا العقائد الثلاث والخصال الثلاث كما مرت الإشارة وسيجئ تفصيل لذلك إن شاء الله.

إذن لم يكن اختيار جمال الدين لإطار مشروعه عشوائياً، ولا غير ذي نسق، كما لم يكن رفضه للتنوير الغربي مجرد رفض لوافد بقدر ما كان حرصاً على توقية الأمة مخاطره من الهدم الذي يبدأ بالعقيدة وينتهي إلى كرامة الإنسان.

(١) جمال الدين الأفغاني/ الرد على الدهريين / ٢٢

المبحث الثالث

مظاهر لسيطرة الفكرة الإسلامية على كتابات جمال الدين

إذا كان جمال الدين قد اتسق مع نفسه في اختيار ملامح مشروع نهضته والذي جاء استجابة لمؤثرات معينة، جل منطلقها الإسلام، فإن ذلك قد بدا واضحاً في معجمه وتناوله في ما خلف لنا من نتاج.

ونشير في هذا إلى مظهرين واضحين لهذا الأمر هما :

١ - العروة الوثقي هدفها وشعارها، ونماذج من عناوين مقالاتها.

٢ - رده على الدهريين وتركيزه على خطرهم الديني.

أولاً : العروة الوثقى :

بعد أن اخفقت الثروة العرابية في مصر ، واحتلها الإنجليز عام ١٨٨٢م ، سمح للسيد جمال الدين أن يختار أي بلد يرحل إليها، فكان أن ذهب إلى أوروبا حيث استقر به المقام في فرنسا ، وهناك التقى تلميذه الشيخ محمد عبده الذي كان منفياً في بيروت ثم حضر إلى فرنسا لينضم إلى شيخه وأستاذه ويواصلا الجهاد ضد المستعمرين، ويقوما بواجبهما تجاه الشرق والأمة المسلمة بعامة.

فكان أن تكونت جمعية سميت بـ«العروة الوثقى» وهي جمعية تألفت لدعوة الأمم الإسلامية إلى الاتحاد والتضامن ، والأخذ بأسباب الحياة والنهضة ومجاهدة الاستعمار.

وأصدرت الجمعية جريدة أسبوعية سمتها باسمها «العروة الوثقى» تولى أمر

التحرير فيها الإمام محمد عبده، وكان أول أعدادها الثمانية عشرة قد صدر يوم ١٥ جمادي الأول ١٣٠١هـ الموافق مارس ١٨٨٤م ، واستمرت ثمانية عشر أسبوعاً فقط، أرغمت على التوقف بعدها بحكم الضغوط الاستعمارية. والذي يهمنا هنا هو أن الشكل والمضمون الإسلاميين كانا ظاهرين بشكل واضح.

* فالجمعية اسمها «العروة الوثقى» وجريدتها اسمها كذلك «العروة الوثقى» وكان شعارها «العروة الوثقى لا انفصام لها» وهو لفظ قرآني له دلالته..

* كذلك كانت الجريدة مظهراً لتعاون مصلحين مسلمين ينطلقان من منطلق واحد هو الإسلام ولهدف واحد هو إيقاظ الأمة لتؤدي رسالتها، وأما حقيقة هذا التعاون فقد ذكر الرافعي أن شكيب أرسلان سمع الأستاذ الإمام محمد عبده ، يقول: أن الأفكار في العروة الوثقى كلها للسيد ليس لي فيها فكرة واحدة، والعبارة كلها لي ليس للسيد فيها كلمة واحدة[١] .

* لذا جاءت معظم عناوين المقالات مفتتحة إما بآية قرآنية أو بحديث نبوي إشارة إلى الموضوع الذي تعالجه هذه المقالة أو تلك. وقد يكون الموضوع سياسياً أو وطنياً أو اجتماعياً.

فافتتاحية العدد الأول كانت هكذا «ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق، وعلى الله التوكل في نجاح العمل»[٢].

وفي عدد ٢٠ مارس ١٨٨٤م يتحدث عن عبث الإنجليز بالأمن في مصر في مقال يصدره: «إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وفي العدد الذي يليه يكتب عن «ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها مصدراً مقاله بـ«سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً».

---

(١) الرافعي/ جمال الدين /٤٩.

(٢) الرافعي/ جمال الدين /٥١ نقلاً عما جمعه الأستاذ عبدالقادر المغربي تلميذ الشيخ من أعداد العروة الوثقى..

* وفي مقال يتحدث فيه عن وحدة الأمة وأهميتها في خروجها من المأزق الذي تعاني يصدره بقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وفيه يؤكد على دور العلماء في تفهيم الأمة قيمة الرابطة الدينية.

* ثم في مقال يتحدث فيه عن التحذير من الشقاق يصدره بالحديث الشريف(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[1].

* ثم يتحدث عن وسائل حفظ كيان الدولة مشيراً إلى ضرورة قراءة التاريخ والوعي بالزمن ، ويعنون لمقاله هذا بقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. والدعوة إلى قراءة التاريخ للاعتبار والإفادة منهج إسلامي يعرف باسم «الاعتبار» أخذاً من قوله﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ﴾ (الحشر/ ٢) هذه مجرد أمثلة من مقالات العروة الوثقى يظهر عنوان المقال كما يدل مضمونه على أن المخرج الذي كان يراه جمال الدين الأفغاني لتحرير الأمة وتنويرها هو الإسلام بشموليته للحياة الدنيا، وربطه إياها بالمصير المحتوم ويوم الحساب العادل.

وما كان لجمال الدين أن يكون غير ذلك اتساقاً مع المؤثرات التي كونت فكره وحددت هدفه ووسائله.

ثانياً : رده على الدهريين وتركيزه على خطرهم على دين الأمة:

ولقد كتب السيد جمال الدين الأفغاني رسالته«الرد على الدهريين» استجابة لحاجة الأمة إلى بيان حقيقة المذاهب الغربية الداعية إلى جديد ومثير بالنسبة للمسلمين، وإن كانت حقيقة ضاربة في جذور تاريخ البشرية حيث الصراع بين الحق والباطل في كل أمم الأرض.[2] ولأن هذه الرسالة أثرٌ معبرٌ

(١) السابق / صفحات ٧٦ ، ٨٦ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١١

(٢) محمد عمارة/ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده/٣٦٦/٢ طبعة القاهرة ١٩٩٣م

عن توجه جمال الدين في تحديد الهدف واختيار الوسائل وهو يحاول إخراج الأمة من عزلتها، لأن الأمر كذلك جاءت الرسالة مظهراً لتعليل لتغلغل الفكرة الدينية في مشروعه لنهضة الأمة ، وحسبنا أن نشير إلى مايلي:

بعد محاولته الرد العقلي ومناقشة هذه المذاهب راح يبين خطرها على الأمة والذي رآه يتمثل في :

أ - إهدار قيمة الإنسان المخلوق المكرم المسئول حيث تجعله هذه المذاهب مجرد حيوان ليس له ميزة وليس له رسالة يتفرد بها ويكافح من أجلها، وهذه المذاهب التي تجعل من الطبيعة المسخرة للإنسان مشرعاً له وحاكماً على سلوكه هي في حقيقتها ، تظلم الإنسان من حيث تدعى أنها تريد تحريره وتنويره، وذلك إذ تقضي عليه بالعجز حيث تحكم فيه ما لا يعقل وهو صاحب العقل الذي ميزه الله به ، وحمله التكاليف بناء عليه.

وهذه قيمة لا يشك في أنها أصل ديني كما قرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(سورة البقرة/ ٣٠).

ب - إفسادها السلوك الإنساني حيث تنكر الألوهية وتنكر اليوم الآخر ، وهاتان العقيدتان يضبطان حركة الإنسان في الحياة، حيث تأتيه الشرائع من إله يعلم حقيقته ويعلم ما يصلحه ، فتحد من هواه وشهواته التي في جموحها ضرر بالغ بالناس والحياة ، كذلك فإن تحلل الإنسان من عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، تجعله لا يعبأ بسلامة عمله من فساده ، مادام يحقق رغبته وشهوته ، وفي هذا تضييع للتكاليف وما تتطلبه الحياة الاجتماعية من سلوك إنساني يميزها عن المخلوقات الأخرى ، ولا يتحقق هذا إلا لمن يؤمن بأنه سيحاسب على عمله، وأي قيمة للعقل إذن إذا كان الإنسان لا يسأل عن عمله في حياته الدنيا، وأي فرق بين العامل والخامل إذا لم يكن هناك حساب يوم البعث

والجزاء ، يقول جمال الدين بعد أن يبين إنكارهم للألوهية ويوم الدين «وقد يظن بعض ضعفه العقول أن في هذا بسطة للفكر وسعة للحرية، لهذا أحببت أن أبين أن هذه النزعة وحدها كافية في فساد الهيئة الاجتماعية، وتزعزع أركان المدنية، وليس من ضروب الباطل ما هو أشد منها تأثيراً في محو الفضائل وإثارة الخبائث والرذائل، وليس من الممكن أن يجتمع لشخص واحد وهم الدهري وفضيلة الأمانة والصدق وشرف الهمة وكمال الرجولية»[1] وبعد أن يبين أن الذي يكبح جماح نفسه عن شهوتها ويضبطها على الجادة لا يكون إلا في الإيمان بالله واليوم الآخر ، إذ لا يجدي صراع وتجارب ، ولا إدعاء شرف ولا حكومة، لأن السلوك وليد الاعتقاد ، فإذا كان الاعتقاد صحيحاً جاء السلوك صحيحاً. «فإذا لم يبق للشهوة قامع ولا للأهواء رادع إلا الأمر الرابع وهوالإيمان (يشير إلى المدافعة-شرف النفس-الحكومة) بأن للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب ومطلوبات الأنفس، سامي القدرة ، واسع الحول والقوة ، مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحياة.

وفي الحق أن هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهرة وخفية . . . فلو خوت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل، وسدت عليها طرق الفضائل، ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة ، أو يترفع بها عن كذب، وغدر ، وتملق[2].

** وهكذا فلم يكن رده على هذه المذاهب إبطال منطقها العقلي فقط بل كان رده مستهدفاً خدمة الأمة وذلك ببيان خطر هذه المذاهب على دينها والتدين فطرة الله التي فطر الناس عليها.

---

(١) الرد على الدهريين/ ٩٠-٩١

(٢) السابق / ١٠٠-١٠١

المبحث الرابع

نماذج للقيم الدينية في مشروع جمال الدين

من خلال ما أشرنا إليه من مؤثرات كونت رؤية جمال الدين للطريق الذي يخرج الأمة من عثرتها التاريخية ، ومن خلال ما أشرنا إليه كذلك من وضوح الشكل والمضمون الإسلاميين في إنتاج جمال الدين ، من خلال هذه الإشارات تأكد لنا اتساق جمال الدين مع عقيدته وثقافته في تحرير وتنوير الأمة.

وهنا نشير إلى مرتكزات مشروعه والتي تظهر بوضوح اعتماده على القيم الدينية في تفعيل الفرد والأمة الإسلامية.

وهذه المرتكزات أو المحاور جاءت نتيجة تأمله وعمق فهمه لحال الأمة ، لقد وجد فرداً تضعضع بناؤه العقدي والفكري والنفسي ، نتيجة لما مني به من استعمار بنوعيه العسكري والعقلي، كما وجد جماعة أو دولاً وهت الصلات بينها ، وفترت الرابطة الدينية فيها ، وقد زيّف وعي الفرد والأمة بادعاء أصحاب المذاهب المادية أن هذه المذاهب طريق النهضة والتنوير ،مما أدى إلى فتور صلة الأمة بمصادر دينها، كما انعكس هذا على سلوك الناس وأخلاقهم حيث لا رادع من عقيدة، ولا حراسة من ضمير. كل هذا جعل جمال الدين يحاول تنشيط القيم الدينية عند الفرد والأمة طريقاً لتحقيق مقصده السياسي، وهو تكوين دولة إسلامية ينسج على غرارها وتقام الأمة. ولعلنا نستطيع أن نجمل هذه القيم -مع كثرتها- في مجالات أربعة هي:

أولاً : مجال تحرير الفرد وبيان حقيقة رسالته ومسئولياته وأنه ليس مجرد حيوان يطعم ويشرب ويشتهي، وقد استلزم هذا الأمر من جمال الدين أن يتعرض بالبيان لبعض القضايا.

أ - فقد ركز -وهو بصدد الرد على أصحاب المذاهب الغربية- على رفضه أن يكون الإنسان مجرد حيوانٍ، أو أن يكون عبداً للطبيعة يتلقى عنها، لأنه مخلوق، ورسالته هي إصلاح الطبيعة والإفادة منها معرفة تؤدي إلى الإيمان، واستثماراً يؤدي إلى العمارة ، وغير ذلك قلب الأوضاع ومضادة لحكمة الله سبحانه في خلقه، لأنه سخر الطبيعة للإنسان وليس العكس.[1]

ب - كذلك حاول أن يحرر الإنسان من حالة الإحباط والوهن التي أصابته من جراء انتصار المستعمرين عسكرياً ونشر مذاهبهم الفكرية في وقت ضعفت فيه صلة المسلمين بمصادر قوتهم المتمثلة في التزامهم بالإسلام[2].

ج - واستمراراً في رفع همة الفرد المسلم جاء تذكيره بأمجاد تاريخه حين عقد مقارنة بين السلف والخلف ، وعدد القيم التي تمسك بها السلف وكانت سبباً لنصرهم وازدهار حضارتهم مشيراً إلى ضرورة أن يعيد الفرد حساباته، وأن يثق في ماضيه، وأن يبعث منه عناصر القوة، ليغير حاضره ، ليستشرف مستقبلاً أفضل.[3]

د - ولم يغب عن عقل جمال الدين طبيعة المعركة التي كانت تعاني منها الأمة، وهي في شق منها حرب أفكار ، وهجوم على

---

(١) الرد على الدرهيين/ ١٨ (أبو اليزيد العجمي/ الإنسان بين المسئولية والتكريم/ ٤٥.

(٢) الرافعي/ جمال/ ١٢٦

(٣) السابق / ١٧٢

المعتقد الديني، باسم العلم وهذا لا ينهض لمقاومته إلا شخص يعمل عقله ، الأمر الذي جعل جمال الدين يحث على استخدام العقل ، وينكر ما شاع من إغلاق باب الاجتهاد، ويذكر مما تميز به الإسلام أنه لم يقبل اعتقاد المقلدين إذا كانوا قادرين على معرفة الأدلة ، كما حمل العلماء مسئولية ما ينتشر في الأمة من جهل ، ورأى أن ذلك مخالف للإسلام الذي عماد دعوته العلم والحكمة.[1]

ثانياً : مجال وعي الأمة بما يجب عليها.

إذا كان جمال الدين قد أوضح أن الاستعمار يعمل -ضمن أساليبه- على صناعة الطوائف وبذر بذور الصراع بينها، وأنه فعل ذلك في الدولة الواحدة والدول المجاورة، وأن هذا أصبح من الوضوح بحيث لا يختلف عليه عاقلان ، أقول إذا كان جمال الدين قد فعل هذا فإنه أكمل ما ينبغي عليه حين بين للأمة واجباتها التي تمكنها من التهيؤ لأخذ حقها وتغيير واقعها.

أ - بين ضرورة إحياء الرابطة الدينية بين كل أجزاء الأمة لأن المجتمع المسلم هو حلقة من سلسلة طويلة كونتها العقيدة، وفيها ما يؤدي إلى النصر من إعداد للقوة ، وأخذ بأسباب النهوض بالحياة، ودعوة إلى الاتحاد لأنه طريق القوة والتعاون. وفي هذا الصدد حمل العلماء مسئولية تعليم الأمة ما يجب عليها لكي تكون خير أمة أخرجت للناس ، جاء هذا في مناسبات عديدة[2].

ب - كذلك حاول أن ينبه الأمة إلى مصدر من مصادر المعرفة إلى جانب الوحي هو التاريخ ، وأكد لهم أن قراءة التاريخ الإنساني تفيد كثيراً في بيان قيمة العقائد وقيمة الأخلاق ، ودراسة التاريخ في انتصارات البعض

---

(١) الرد على الدهريين / ١١٤

(٢) الرد على الدهريين / ١١٢، الرافعي/ جمال الدين /٧٦

وانكسارات الآخرين رافد تربوي هام لأنه يبين لم كان النصر؟ ولم كانت الهزيمة؟ لأن الأمر محكوم بسنن لا تتخلف، ولم يقصر الدعوة على قراءة تاريخ المسلمين بل دعا إلى قراءة تاريخ الإنسانية وضرب أمثلة من اليونان والفرس والفرنسيين وغيرهم[1].

وهكذا يمكننا القول بأن جمال الدين حاول أن يحرر الجماعة من أخطار أصابتها لتكمل عملية التحرر في الفرد والجماعة والدولة.

ولم يكن حديث الأفغاني عن قيمة وعي الأمة بواجباتها مقصوراً على ما يكون بين الناس جماعات وشعوباً بل عدّى هذه التوعية إلى موقف الأمة من الاستعمار، ومن مهاجمي عقيدتها باعتبار أن في هذا اعتداء على كرامتها التي أرادها الله لها.[2]

ثالثاً : مجال أثر الاعتقاد الصحيح في حياة الأمم:

لقد تحدث الأفغاني عن هذا الأمر بالمعنى العام للاعتقاد الذي يعنى ما يعقد عليه الإنسان قلبه من عقائد، وعمم هذا بحيث تشمل ما قبل الإسلام كما تشمل الإسلام، وقد أشرت في التمهيد أن فهمه هذا كان منطقه أن الإسلام دين الفطرة، وأن ما دعا إليه من عقائد هي سبب رقي الإنسان منذ آدم إلى آخر الزمان ، الأمر الذي جعله يضرب الأمثلة من حياة جميع الأمم ومن بينها أمة الإسلام، لكنه -كما أشرت في التمهيد- يركز على العقيدة الإسلامية حين يذكر ما تتميز به على سائر الأديان[3] . يقول الأفغاني في هذا الصدد: «أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع نفوسهم ثلاث خصال، كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها.

---

(١) الرد على الدهريين / ٦٨ - ٧٨

(٢) الرافعي/ جمال لادين/ ١١١

(٣) الرد على الدهريين/ ١٠٥

العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وهو أشرف المخلوقات.

العقيدة الثانية : يقين كل ذي دين بأن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له (للدين) فعلى باطل وضلال.

العقيدة الثالثة : جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لتحصيل كمال بهيئته للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي.[1]

أما عن مقتضيات هذه العقائد فقد بين أن **العقيدة الأولى** تجعل الإنسان يشعر بوجوده، ومكانته ، فيأخذ في ترقية عقله ووجدانه، فيؤدي به هذا إلى التقدم العلمي والإسهام الحضاري، وفي مجال سلوكه يترقى عن الأخلاق الحيوانية من تصارع وتطاحن، فتكون العلاقات الإنسانية مودة وتعاون، وهذه العقيدة أحجى حاد للفكر ، وأنجح داع للعقل، وأقوى فاعل في تهذيب النفوس ، وتطويرها من دنس الرذائل.

وأما العقيدة الثانية: التي هي اليقين بأن أمته أشرف الأمم فتدفع صاحبها إلى العمل على رفعة أمته، ولا يقبل الدنية في أمورها، فإذا جاءت صروف الدهر على قومه، فاصترعتهم ، . . أو سلبتهم مزية من مزايا الفضل ، لم يستقر له راحة ، ولم يسكن له جيشان فهو يمضي حياته في علاج ما ألم بقومه حتى يأسوه أو يموت في أساه.

وأما العقيدة الثالثة: التي هي أن الإنسان إنما جاء هذه الحياة ليحصل ما يتهيأ به إلى حياة أوسع وأرحب، فقد بين الأفغاني أن هذه العقيدة تجعل صاحبها يملأ بالخير حركاته وعمله ، ويتحرى الصدق في كل ما يفعل، أو ينأى ما استطاع عن ضد هذا، وهذه العقيدة عنده «أحكم مرشد وأهدى قائد

---

(١) الرد على الدهريين/ ٢٥، ضمن مجموعة للإمام محمد عبده دون تاريخ.

للإنسان إلى المدنية الثابتة المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة[1]. هكذا يوظف الأفغاني العقيدة الحقة توظيفاً يبعدها عن أن تكون مجرد ألفاظ، ويحيلها إلى بواعث حركة، وركائز نهضة ما أشد الحاجة إليها.

رابعاً : مجال توظيف الأخلاق الدينية في التنمية الحضارية:

يقول جمال الدين : «وأما الخصال الثلاثة التي توارثتها الأمم من تاريخ لا يحد قدماً، وإنما طبعها في نفوسهم طابع الدين فإحداها خُصلة الحياء» ويذكر أن الخصلة الثانية هي الأمانة، والثالثة هي الصدق.[2]

فالحياء عنده هو الإباء والغيرة وهما مبعث حركات الأمم والشعوب لاستفادة العلوم والمعارف، وتسنم قمة الشرف والرفعة ، وتقوية الشوكة ، وبسط جناح العظمة، وتوفير مواد الغنى والثروة ، فالحياء محرك لصاحبه على الرفعة وعدم قبول الدنيء من التصرفات، وكل أمة حرمت الحياء وفقدت الغيرة والإباء فقدت الترقي وإن تسنى لها من أسبابه ما تسنى.

وأما الأمانة فهي أساس المعلومات ، وبدونها يختل نظام الحياة ، وهي ذات مجالات متعددة في أمور المال، وأمور الولايات العامة والخاصة التي بها أمور البشر.

ويؤصل هذه المعاني حين يذكر أن الحق سبحانه كشف أن الأمانة دعامة بقاء الإنسان ، ومستقر أساس الحكومات، وباسط ظلال الأمن والراحة ، ورافع أبنية الفرد والسلطان، وروح العدالة وجسدها ،ولا يكون شيء من ذلك بدونها.[3]

وأما الصدق فهو المعنى الجامع للحق ، وبه تثمر الأعمال وتفيد الأقوال

---

(١) السابق / ٢٥-٢٩

(٢) الرد على الدهريين / ٥٧

(٣) السابق / ٥٨

وتربى الأمم وتسعد ، وهو في هذا المجال يذكر الأمثلة على قيمة الصدق وخطر الكذب . أقول لقد حاول الأفغاني أن ينشط الإيمان عند الفرد والجماعة متخذاً في ذلك طريق الاستشهاد بالوحي والتاريخ في آن معاً.

وهذه المجالات التي أشرنا إليها هي محاور مشروع الأفغاني للنهضة التي تمناها وعمل لها ودفع حياته ثمناً لفكرته والتي انبثقت من عقيدته.[1]

(١) أبو اليزيد العجمي - فاعلية الإنسان في الفكر الإسلامي/ مقال في حولية الجامعة الإسلامية بباكستان العدد الثاني/ ١٩٩٥م.

خاتمة

إذا كانت أمتنا الإسلامية تبحث لنفسها عن مخرج من أزمتها الحضارية، فإن البدهية الأولى هي أن تدرس مشروعات النهضة التي عاش لها علماء ومفكرون مسلمون أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده ، ومحمد إقبال، ومالك بن نبي، وغيرهم. والدراسة تعنى في نظرنا -محاولة الوقوف على القواسم المشتركة التي تجمع بين هذه المشروعات الحضارية وتطلع الأمة الآن إلى مشروع حضاري يقيم التنوير على أساس الاستقلال لا التبعية.

ولن يكون التنوير العربي مستقلاً إلا إذا انطلق من عقيدة الأمة وأفاد من ثقافتها ، وممارستها الماضية ، واستهدف مصلحتها في مرحلتها الحالية، واستشرف مستقبلها في قرنها القادم.

ولعل مشروع النهضة عند جمال الدين كان من أسبق وأوضح الرؤى التي قدمت في هذا الصدد ، فكما رأينا انطلق من الواقع الذي أثار همته إلى جانب مكوناته التربوية، والثقافية، وحين فكر في هوية هذه الأمة وجد أنه لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها، لذا تبنى بعث همّة الأمة من مكمن قوتها وهو القيم الدينية بمعناها الواسع.

وبدلاً من الجدال الدائر حول صلتنا بالغرب ، بين أهميته وضروريته وبين رفضه لدى البعض ، بدلاً من هذا ينبغي أن نعيد قراءة تراثنا بعيون لا ترى نقل الماضي إلى الحاضر جملة وتفصيلاً ، لكنها ترى أن تنقل من الماضي

ما يمثل الأصول والمنهج وعمق الرؤية، وهي زوايا تحتاجها الأمة في كل زمن وكل مكان.

ولعل ما قدمه الأفغاني من فهم للهدف ، وتحديد للوسائل، يؤكد أنه كان متسقاً مع نشأته وثقافته وواقع الأمة ومتطلباتها ، وهذا ضوء ينبغي أن نهتدي به، إذ من المنطق أن نبحث فيما نملك قبل أن نمد أيدينا إلى غيرنا، ولن نكون متسقين مع أنفسنا إذا وقعنا في خطأ مؤداه أننا ننادي بحرية الأرض والفكر في الوقت الذي نستمرئ فيه نقل ما عند الغرب وامتداحه ،ظناً منا أن مجرد أخذه سوف يحيلنا إلى شرق مستنير، والحقيقة أن ذلك لا يكون ،ولن يكون لأن الاستنارة موجودة في ثقافتنا التي انطلقت من معتقدنا في الألوهية واليوم الآخر ، وكم أثمرت حضارة حين أخذ المسلمون بأسباب الحضارة حتى ولو أفادوا من تجارب وثقافات الأمم الأخرى ، أقول إن قراءة الأفغاني بهذه الرؤية هي قراءة لأصول ومنهج ينبغي أن يتلازما، وإلا فسيظل الجدل دائراً دون أن تخطو الأمة خطوة واحدة إلى الأمام.